محمد صلى الله عليه وسلم: رسول الإنسانية

السيد حيدر علي شهاب الفيضي

قال الله تعالى في قرآنه المجيد: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم) [التوبة: ١٢٨] وكان عليه الصلاة والسلام يقول: فكوا العاني، وأجيبوا الداعي، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض.

كان محمدﷺ بشراً، وكان بشراً رسولا، لكن مع ذلك إنه كان أنموذجا للإنسانية الكاملة في العالم، لذلك استطاع أن يدافع عن البشرية ويضمن لكل الجنسيات والطوائف حقوقها المادية والمعنوية، كما ورد أن ثمامة بن أثال وقع أسيراً في أيدي المسلمين فجاؤوا به إلى النبي ﷺ فقال: أحسنوا إساره، وقال: اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه. فكانوا يقدمون إليه لبن لقحة الرسول نفسه غدواً ورواحاً. لأنه كان صاحب مكارم الأخلاق العليا كما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كان الرسول ﷺ يؤلف أصحابه ولا ينفرهم، ويكرم كل كريم قوم، ويوليه عليهم، ويعطي لكل جلسائه بنصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من فاوضه صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه, فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء.

ولذلك كان أصحابه يفتقدونه إذا غاب عنهم، ولا يشبعون من رؤيته إذا جلس بينهم. يقول ثوبان رضي الله عنه: إنه كان شديد الحب لرسول الله، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه، يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: ما غير لونك؟ قال ثوبان: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك أستوحشك وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، فأخاف ألا أراك لأنك ترفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فلا أراك أبداً. فنزل قوله تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ

فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) رواه البغوي في تفسيره.

وهذا التعلق الشديد بالرسول ﷺ لا لشيء سوى أنه كان يجلس مع الفقير والخدم والصغير والضعيف يؤاكلهم ويصاحبهم ويباسطهم، ولم يكن يرى لنفسه فضلاً عليهم، لذلك وصفه الله بقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ). كان عليه الصلاة والسلام يحترم الآخرين فاحترمه الآخرون، ولم ينتقص من شأن أي فرد من أفراد المجتمع حتى الذين كانوا يسيئون إليه. لقد عزم ابن عبدالله بن أبي بن سلول أكثر من مرة أن يقتل أباه رأس المنافقين، لأنه كان يؤذي الرسول بنفاقه. لكن الرسول ﷺ لم يسمح له بذلك, وكان يقول: أتريد أن يقول الناس إن محمداً يقتل أصحابه؟

وقد أتاه بعض رجال قريش ممن استدان منهم شيئاً من المال، فطالبوه بحقوقهم وأغلظوا عليه القول، وذات مرة شد أحدهم طرف عمامته حول رقبته حتى كاد أن يخنقه، فلم يقل له رسول الله شيئاً، بل قال: دعوه فإن لصاحب الدين مقالاً.

ومن أمثال ذلك أيضاً أنه كان في حرب فرأى العدو من المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله. فسقط السيف من يده، فأخذه المصطفى وقال له: من يمنعك مني؟ فقال الرجل: كن خير آخذ. قال المصطفى ﷺ: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، قال الرجل: لا، ولكني لا أقاتلك ولا أكون معك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله فجاء الرجل أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وعندما دخل مكة عام الفتح منتصراً كان بإمكانه أن ينتقم لنفسه ولأصحابه، وكان قادراً عليهم، ومع ذلك وقف بباب الكعبة وهو يقول: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم. فقال عليه الصلاة والسلام: أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويدل على جانبه الإنساني هذا الحديث الذي يوصي فيه قواده في الغزوات: "انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين". رواه أبوداود. ومن تكريمه للإنسانية أنه وقف يوماً لجنازة يهودي عندما مرت أمامه. وعندما قالوا له: إنها جنازة يهودي يا رسول الله، قال: أوليست نفساً خلقها الله؟

وذات يوم دخل الرسول ﷺ حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل. فلما رأى النبي صلعم حن فذرفت عيناه، فأتاه الرسول فمسح ذفراه فسكن، ثم قال: من رب هذا الجمل؟ قال أحد الأنصار: أنا يا رسول الله. فقال الرسول: ألا تتقي الله في هذه البهيمة؟ إنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه".

و كان الرسول الكريم ﷺ لا يؤذي أحدا بلسانه أو بيده. كيف وإنسانية الرسول الكريم ﷺ في كل شيء حتى مع الأطفال والحيوان والنبات. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله صلي الله عليه وسلم. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه ذكر النبي ﷺ فقال: لا والله ما كان يغلق دونه الأبواب ولا يقوم دونه الحجاب ولا يعزي عليه الجفاف ولا يراح عليه بها ولكنه كان بارزا من أراد أن يلقى نبي الله لقيه.

هكذا كانت صفات الرسول الكريم من أنه كان أنموذجا أعلى للإنسانية. إنه كان لا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته. وكان يعامل الخدم معاملة حسنة. فعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته. وعنه أيضا, قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما سبني سبة قط ولا ضربني ضربة ولا انتهرني ولا عبس في وجهي ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبل النبي ﷺ الحسين بن علي رضي الله عنه وعنده الأقرع بن حابس فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا. فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: من لا يرحم لا يرحم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة قط ما لم تكن حرمة من محارم الله, وما ضرب بيده خادما ولا امرأة قط. و عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل يسوق بأمهات المؤمنين يقال له أنجشة فاشتد في السياقة فقال له رسول الله ﷺ . يا أنجشة رويدك سوقا بالقوارير.

إنسانية الرسول صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين.

كان مبدأ المساواة أهم االمبادئ التي جذبت الكثير من الشعوب نحو الإسلام. وكانت هذه الشعوب مصدرا من مصادر قوة المسلمين. وجاءت السنة - وهي تعد مفسرة للقرآن -

صريحة في تقرير مبدأ المساواة بين المسلمين وغيرهم. وبهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة بدأت الدولة الإسلامية وضمت المدينة المنورة الأنصار والمهاجرين، ومعهم اليهود الذين نزلوا يثرب وماحولها بعد أن أجلاهم الروم من فلسطين، واتخذوا التجارة والصناعة حرفة لهم حتى ظهروا على العرب بأموالهم، ثم عاملوهم بالربا الفاحش حتى ابتزوا كثيرا من أرضهم، فصارت لهم حصون كثيرة وقبائل هي: بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة.

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة أراد أن يجعل منها وطنا واحدا للعرب واليهود تجمعهما رابطة الوطن لا يفرق بينهما اختلاف الدين. فأبطل المعاهدات القديمة المفرقة، وعقد بينهم معاهدة تحقق الأغراض التي أرادها لهم، وكتب بها كتابا بين المهاجرين والأنصار واليهود، والتي تضمنت حرية العقيدة، فقد أقر الرسول ﷺ غير المسلمين على دينهم، والمساواة في الحقوق والواجبات، وأقرت الوثيقة حرمة الملكية، وحرمة النفس وحق الأمن.

وفي السنة الثامنة للهجرة فتح الرسول ﷺ مكة، ولم يكره أحدا على الإسلام الذي كفل حرية العقيدة الدينية لغير المسلمين في الدولة الإسلامية. وقد قام الإسلام على روح التسامح وعدم التعصب، ولاينسب إلى النبي ﷺ أنه أكره أحدا على اعتناق الإسلام، وهو ما سار عليه الرسول ﷺ بالنسبة للعقائد الموجودة في عهد النبوة، وهي اليهودية والنصرانية والمجوسية، وقد أطلق على هؤلاء "أهل الذمة" وهم أهل الكتاب من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقطن داخل حدود الدولة الإسلامية، ويقرون لها بالولاء والطاعة، وسموا "ذميين" لأنهم منحوا ميثاق أو معاهدة حماية ينزلون بها عن حقوق معينة، ويستمتعون مقابل ذلك بحق الحماية والأمن للذميين وحرية الاعتقاد، وقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة في معظم الكتب التي وجهها إلى الأفراد والعشائر بأن يعطيهم " أمان الله ورسوله".

ومع ما كان بين الرسول واليهود من عهد لكنهم نقضوا العهد وحاربوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأرادوا الغدر به، لكنه تسامح معهم. فعندما نقض يهود بني قينقاع العهد وحاولوا التفريق بين المسلمين حاصرهم الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه، فشفع فيهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول، وحقن الرسول صلى الله عليه وسلم دماءهم وأجلاهم عن المدينة في السنة الثانية للهجرة، ولما أراد بنو النضير قتل الرسول غيلة حاصرهم، ولما رأوا الهزيمة سألوه أن يجليهم ويكف عن دمائهم فأجابهم إلى طلبهم وخرجوا إلى خيبر والشام في السنة الرابعة للهجرة.

ونقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتحالفوا مع الأحزاب لحرب الرسول صلى الله عليه وسلم ثم نزلوا على حكم الرسول، ويلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم عفا عن بعضهم كما أسلم بعضهم وله صحبة، وهذا نتيجة لتسامح الرسول معهم، كما حارب الرسول يهود خيبر بعد ذلك فأبقى عليهم بعد أن استسلموا له. لم يُكره الرسول صلى الله عليه وسلم أحدا على الإسلام ولم يصادر حرية أحد ولم يأمر بقتال إلا من قاتل، ولم يتعرض لأحد في ماله أو أمنه أو عرضه.

وقد كفل الإسلام حرية العقيدة الدينية وجعل هذا المبدأ أصلا عاما يتفرع منه جميع الحريات الشخصية المعروفة في العصر الحديث. فعندما وجد المسلمون ـ بعد فتح خيبر ـ نسخا من التوراة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بردها إلى اليهود. وهذا يبين كفالة الإسلام لحرية الرأي والعقيدة، وكذلك حرية التعليم لغير المسلمين. ونذكر واقعتين في غزوة خيبر تكشف إقرار الإسلام ومحافظته على حرمة المال والنفس حتى في أوقات الحروب.

الواقعة الأولى: أسلم أحد الرعاة وكان أجيرا على غنم مملوكة ليهودي أثناء حصار الرسول صلى الله عليه وسلم لخيبر، فسأل هذا الراعي الرسول عما يفعله بهذه الغنم، فأمره الرسول أن يضرب في وجوهها، فإنها سترجع إلى صاحبها وهو داخل حصن، فأخذ حفنة من الحصى فرمى بها في وجهها حتى دخلت الحصن، وهذا يدل على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على حرمة المال ولو كان لعدو محارب.

الواقعة الثانية: بعد فتح خيبر دخلها عبد الله بن سهل مع أخ له، ثم أخبر أخوه أنه قُتِل، فأتى اليهود فقال: أنتم والله قتلتموه، فأنكروا ذلك، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم مع بعض الأنصار وأخبره بذلك، فكتب الرسول إلى اليهود في ذلك، فكتبوا أنهم ماقتلوه، ففداه الرسول صلى الله عليه وسلم من عنده وبعث إلى أولياء القتيل بمائة ناقة. وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على إدامة العلاقات الاجتماعية مع غير المسلمين، فقد تصدّق الرسول بصدقة على أهل بيت من اليهود، وتصدقت صفية بنت حيي بن أخطب زوج النبي صلى الله عليه وسلم على يهوديين ذوي قرابة لها، فبيع ذلك الصداق بثلاثين ألفا.

وقد أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية، نصرانية كانت أم يهودية، بشروطه، لما بين المسلمين وأهل الكتاب من تقارب في العقيدة، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، ولم يفرق الدين في حقوق

الزوجية، في حين أن الشريعة اليهودية لاتجيز لليهودية التزوج بغير يهودي، كما أن اختلاف الدين من موانع الزواج في التشريع المسيحي، ويعتبر زواج المسيحية من غير المسيحي زواجا باطلا.

ونرى حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على حسن المعاملة مع غير المسلمين حينما قدم عليه وفد "النجاشي أصحمة ابن الأبجر" ملك الحبشة وهم نصارى، فقام النبي صلى الله عليه وسلم يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نحن نكفيك هذا، فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم. وتتجلى حرية العقيدة في العهد الذي أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران في اليمن حين قال: إنها وحاشيتها في جوار الله وذمة رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ومن سأل حقا منهم بينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.

وهكذا يظهر تسامح الإسلام في مواقفه المشرفة من مخالفيه وفي تساهله معهم، فقد أبقى عليهم تحت حكمه، واحترمهم وقربهم في المناصب وعاملهم بالحسنى، فلم يُكره أي فرد أو جماعة من اليهود أو النصارى وغيرهم على اعتناق الدين الإسلامي في جميع العصور الإسلامية. وقد نفى القرآن صراحة الإكراه في الدين وشدد على حرية الاعتقاد، قال تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)"سورة البقرة الآية٢٥٦، حينما عمدت الحكومات المسيحية في أوروبا على إبادة المسلمين في الأندلس وتخريب مساجدهم وإحالتها إلى كنائس. وخلال استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ذبحوا سبعين ألف مسلم في يوم واحد وحطموا رؤوس الصبيان، وألقوا الرضع من أسوار الحصون، وبقروا بطون الحوامل، وقد اعترف منصفو الغرب بتسامح المسلمين مع الأقوام التي انضوت تحت لواء الإسلام وما نالوه من الحرية في ممارسة الشعائر الدينية ولكن الغرب النصراني واليهود يضطهدون أبناء هذه الأمة باسم الدين حتى في هذا العصر المتقدم.